لمَ الإنسان مهملٌ لنفسه الزائلة إلى هذا الحد؟*

الكاهن الشهيد تداوس أوزبنسكي

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إذا صرخ شخص ما في أحد الحشود: "نارا!"، ألَن يفقد الجميع فوراً الهدوء ورباطة الجأش ويبدؤون في البحث عن مخرج؟ وإذا لم يكن هناك مخرج، ألن يغلب عليهم الخوف الذي يجعلهم ينسون كل شيء ويبحثون فقط عن طريقة ما لإنقاذ حياتهم؟

حسناً، الكنيسة المقدسة تصرخ: "الدينونة على الأبواب! نار جهنم مشتعلة بالفعل في نفوس كثيرة! " لكن الناس يسمعون هذا بلا مبالاة تقريباً، ولا يكاد أحد منهم يتخذ خطوة للقيام بشيء على الأقل من أجل خلاص أرواحهم الفاسدة.

إذا رأى الإنسان، حتى في المنام، لهيب حريق رهيب، أفلا يستيقظ مرتعباً؟ ترسم الكنيسة في أذهان الناس صورة يوم القيامة ونار جهنم بكل الصفات القادرة على إيقاظ الناس من نومهم الروحي. لكن الناس لا يتأثّرون بأي أوصاف ويستمرون بلا مبالاة في سبات روحي، غالباً ما يستمر حتى نهاية حياتهم.

لمَ الإنسان غير مبالٍ للغاية بنفسه الفانية؟ من الواضح أنه لا يؤمن بكل ما تُعلِّمه الكنيسة المقدسة على لسان المسيح نفسه ورسله، عن الدينونة الأخيرة وجهنم. يعتقد الإنسان أنّ كل شيء سيكون مختلفاً إلى حد ما، وسوف تمرّ عليه أهوال جهنم- في النهاية، الجميع يعيشون مثله من دون أن يتأصّل فيهم أي خوف.

حقاً، في هذه الفكرة، لا يختلف الإنسان عن خروف بلا عقل، يتبع القطيع كله، ويذهب إلى حيث يذهب الآخرون، ويشعر بالرعب فقط عندما يرى الدمار الذي يقترب بأم عينه. يبدو للإنسان أن أهوال جهنم سوف تفوته بطريقة ما.

لماذا؟ إنه يشير إلى فكرة "قد تكون الأمور على ما يرام" التي يكررها بلا شعور لتبرير استهتاره وإهماله وكسله. الاستهتار هو ثمرة عدم الإيمان بالعذاب الأبدي. إن كان الإيمان بالعذاب الأبدي حيّاً، إذا كان الإنسان يعرف أن العذاب لا مفر منه - تماماً كما أن احتراقه لا مفر منه إن لم يهرب من النار- ألا يكون أكثر حذراً؟ تذكرْ ساعتك الأخيرة ولن تخطأ أبداً. عندها تتحقق كلمات سيراخ الحكيم هذه في هذا الإنسان.

لا يؤمن الناس بالعذاب الأبدي، أو أنهم يؤمنون لكنهم يعتقدون أنه لن يكون فظيعاً كما هو موصوف في الإنجيل. لماذا؟ ألا يمكن أن يكون هناك عذاب أبدي؟ ألا يمكننا أن نقبل بوجود مثل هذه العذابات؟ في النهاية، يبدأ العذاب الأبدي على الأرض، يحمله الإنسان في قلبه حتى قبل العبور إلى الحياة وراء القبر.

فليقلْ لنا أولئك الذين لا يؤمنون بالعذاب الأبدي: مَن لا يتألم أبداً وهو على الأرض؟ مَن يعيش كل أيامه سعيداً وراضياً وبدون حزن؟ في النهاية، السعادة هي زهرة نادرة يبحث عنها الناس طوال حياتهم دون أن يجدوا ما يريدون. وإذا وجدوا، فبأي سرعة تتلاشى تلك الزهرة! وما هو مقدار المعاناة عندما تقف العقبات في الطريق؟ هناك الكثير من العذاب من الحسد ومن الشكوك المختلفة ومن الخوف من فقدان ما هو عزيز.

غالباً ما يظهر الناس ممتلئين بفرح الحياة. كلهم يضحكون، ولكن مَن مِن الذين يضحكون لا يضعف أحياناً إذ يشعر بالفراغ العاطفي الذي لا يستطيع شيء أن يملأه: شعور بالخيبة والاستياء والإرهاق والملل القاتل. قد لا يكون السعداء يحسبون الساعات، لكن كم هو مضجر الوقت للكثيرين، ولكل واحد في الكثير من أيام وسنوات حياته. كم يتوق المرء "لقتل" هذا الوقت العصيب!

مَن هو الذي لا يبتلعه التعب؟ من منا لم يشعر قط أن هناك شيئاً ناقصاً في حياته؟ هذا الإرهاق، أو الشعور بنقصان شيء نحتاجه على الرغم من كل السعادة الظاهرة، ألا يظلِم سعادة الحياة؟ أليست نواة العذاب المرهق في النفس هي نواة العذاب الأبدي؟ وماذا يُقال عن عذاب الضمير؟ من لم يختبره؟ في النتيجة، كل عملٍ ضد الضمير يترك في النفس مذاقاً مراً واضطراباً وقلقاً وعذاباً! بِكَم من القلق نشعر كل يوم، إلى أيّ مقدارٍ يتجمّع على مدار الحياة كلها؟

إذا نظرت بعناية، سترى في كل فرح بشري التماعة دموع، وستشعر بنَفَس الحزن والأسى والعذاب إذا كان هذا الإنسان يتجاهل ضميره ولا يفكر بوصايا الإنجيل. على عكس ذلك، انظرْ إلى المسيحي الحقيقي ومدى إشراق وجهه وسجيّته الروحية على الرغم من أي حرمان كبير؛ كيف أنه لا يقع في الإحباط اليائس أبداً، ويجد في كل شيء مصدراً للسلام. ستلاحظ في دموعه بصيص فرح سامٍ غير أرضي وأبدي. إن سعادة الخاطئ هي تفاحة جميلة ذات لب أكله الدود. لكن حزن الرجل الصالح خدش طفيف في جلد تفاحة ذات لبٍّ سليم.

إن سعادة الأول، مع كل الفرح الظاهر المستمر، تأكلها الدودة التي لا تموت والتي تعذب ضميره. أما الأخير فيحتمل الأحزان في هذا العالم لكنها لا تضر قلبه الذي يحمل بداخله بذرة الحياة الأبدية المتبرعمة.

ولا شيء يمكن أن يخفف من قلق وعذاب روح الخاطئ. على الرغم من أن الكثير من الأشجان يتلاشى بسرعة كالأمواج التي تعبر البحر، إلا أن هذا لا يعني أنها اختفت دون أثر، لأن موجة أخرى سترتفع في مكان آخر. إن ضعف الصحة الجسدية لا يختفي دون أن يترك أثراً، بل هو يتحول لفترة، فقط ليتراكم تدريجياً ويتقدم، ويؤدي في النهاية إلى الانهيار الكامل للصحة وإلى المرض والموت نفسه. لأنه ما لم تتعطل الصحة فما الذي يمنع الإنسان من العيش إلى الأبد؟ الشيء نفسه في النفس: لا تختفي المخاوف بدون أثر! وكم منها تتراكم فتحدث خراباً تاماً في حياة النفس!

ثم أي عذاب يتولّد في النفس! حقاً أن الإنسان يحصد ما يزرع. يجلب العذاب لنفسه، لأعماله، وكما يقول الرسول (١ كورنثوس ٢٩:١١) هو يأكل ويشرب الدينونة لنفسه من خلال العيش بِدُونِ اسْتِحْقَاق.

لا شيء تقريباً مما تقبله النفس دون وعي يختفي من دون أثر، على سبيل المثال: الجو والناس والمواقف التي تحيط بنا. قد تتشكل حياة البعض بكاملها تحت تأثير ما يحيط بهم. وإذا كان الشخص يتلقى في نفسه باستمرار أفكاراً مثيرة للتجارب، ومن الأفكار السرية تنشأ في النفس المشاعر والرغبات وأعمال ضد الضمير، فكم من هذه الآثار السيئة تتراكم في النفس، وهي أشياء يتلقاها الإنسان يومياً، كل ساعة وكل دقيقة طوال سنوات حياته الطويلة؟ يرسم الإنسان ويخلق صورته المستقبلية مع كل عمل وفكر، كمثل رسام أو مصوّر.

وحتى لو كانت هذه الصورة الآن مظلمة وغير مطوَّرة، فإنها ستطوّر يوماً ما كمثل صورة فوتوغرافية للرب في يوم القيامة، عندما يظهِر الرب خفايا الظلام (١ كورنثوس ٥:٤).

بالحقيقة، الدود "الذي لا يموت" و "لا ينام" الذي يذكره الرب ليس من اختراع العقل البشري. تولد هذه الدودة وتنمو في عذاب الضمير أثناء الحياة الأرضية. في النهاية، هناك الكثير من الانتحارات! ألا يقتل الناس أنفسهم لأنهم لا يستطيعون تحمل عذاب الضمير الذي لا يطاق ولا يخمد، والذي يكون قد بدأ بالفعل؟ عذابات السعادة المحطمة، الآمال المضللة، تقويض أسلوب حياتهم المنشود؟ وجهنم ليست شبحاً. إن نار الأهواء التي تحوي في ذاتها العذاب هي بالفعل بداية نيران جهنم التي ستشتعل ولن تنطفئ إذا أهمل الإنسان إطفاءها في هذه الحياة الأرضية.

لهذا السبب جاهد القديسون لكي يتذكروا دائماً دينونة جهنّم ونيرانها، كما فعل على سبيل المثال القديس إفرام السرياني، الذي "ناح بمرارة، إذ نظر مسبقاً الدينونة بوضوح". لهذا السبب حفظ أسلافنا دائماً ذكر يوم القيامة في أذهانهم. بدأ التحول إلى المسيحية في عهد الأمير فلاديمير [الكلام هنا عن روسيا: المترجم] بتصوير مرئي ولفظي ليوم القيامة. كان المصلون يغادرون الكنيسة دائماً بتذكّر يوم القيامة المصور فوق العتبة، كما ينعشون ذاكرتهم بالصور على جدران منازلهم، وبالترانيم الروحية، إلخ.

وعلى العكس من ذلك، عندما تراخى أحفادهم اللاحقون في تذكرهم يوم القيامة، راحوا أيضاً ينسون وصايا المسيح! إنهم يتذكرون بشكل جيد ما يشغلهم وما هو أكثر متعة لهم. فيما ينسون الدينونة الأخيرة لأن تذكّرها قد يدمّر أفراح الحياة على الأرض؛ لقد نسوا ذلك، معتقدين أن الدينونة بعيدة جداً ولا أحد يعرف متى ستكون.

كما أن الناس لا يقلقون من الزلازل التي لن تأتي قريباً، على ما يعتقدون، أو أنها تأتي في وقت غير محدد، كذلك لا يقلقون بشأن الدينونة الآتية، وعدم إيمانهم لا يؤدّي إلا إلى قساوة حالة الإهمال عندهم. تمامًا كما أن البشر لم يشاؤوا تصديق وعظ نوح قبل الطوفان، كذلك يبقى الناس الآن في حالة عدم إيمان متهاون، خاصة أن العلم الحديث يشير غالباً إلى أن الطوفان والدينونة الأخيرة هي مجرد حكايات خرافية فارغة. إنهم يفكرون "كيف يمكن أن تكون الدينونة رهيبة إذا كان الديان هو المسيح الذي يفيض للناس هذه المحبة العظيمة مع الوداعة والمغفرة؟" لكن هذه الوداعة هي لتزيد من خوفنا من القاضي. إذا كان خاطئ ما يعيش على الأرض خائفاً جداً من بارٍ وهو يحاول أن يبتعد عنه ولا يقابله، فكيف سيلتقي وجهاً لوجه مع المسيح، الوديع والبار الذي لا يخطأ، عندما يتذكر كل الأعمال التي ارتكبها والتي أغضبت المسيح طوال أيام حياته؟ إن وداعة المسيح ستكون مرآة نقية تنعكس فيها كل نجاسة حياة الخاطئ وظلمها! وعلى الرغم من أن وجه الرب يبقى وديعاً بلا تغيير، أفلا تجمع هذه الوداعة الجمر المشتعل على رؤوس الخطأة (أمثال ٢٢:٢٥ ؛ رومية ٢٠:١٢)؟ وَيْلٌ لمَن لا تضرِم هذه الجمرات في قلوبهم التوبة المحرقة خلال حياتهم على الأرض. إذ بسبب قساوة قلوبهم ستتحول هذه الجمرات إلى نار جهنم التي لا تطفأ!

كم نحتاج أيضاً إلى حفظِ ذكرٍ قوي لدينونة المسيح الرهيبة الأخيرة وعذابات جهنم النارية! كم نحتاج نحن الذين نعيش على الأرض أن نبكي ونفرح، ولكن ليس بسبب ما يجعلنا نبكي ونبتهج عادة. نحن بحاجة إلى استبدال الحزن غير المجدي لهذا العصر بالحزن الذي يفيد الروح في الحياة الأبدية؛ لتفضيل الفرح اللانهائي في المسيح على الأفراح الباطلة والزائلة!

كم علينا أن نتبع الكنيسة المقدسة، وأن نتنهد من أعماق نفوسنا ونصلّي "لتدخلْ قُدامك صلاتي، أمل أذنَيك إلى طلبتي فقد امتلأث من الشرور نفسي، وحياتي من الجحيم دنت" أو بكلمات ترنيمة هذا العيد الحاضر: "ويل لي أيتها النفس المظلمة! إلى متى لن تبتعدي عن الشر؟ الى متى تبكين بقنوط؟.. لماذا لا ترتعدين أمام كرسي دينونة المخلّص"، و"أتفطن في اليوم الرهيب وأنوح على أفعالي الشريرة كيف أجاوب الملك الذي لا يموت، وبأيّة دالّة أعاين الديّان أنا الشاطر، لكن أيها الآب الحنون والابن الوحيد والروح القدس ارحمني".

* عظة في أحد الدينونة (مرفع اللحم).

Source: Hieromartyr Thaddeus (Uspensky). Why is Man so Careless About his Perishing Soul? Homily on Meatfare Sunday (of the Last Judgment). Translation by OrthoChristian.com. Pravoslavie.ru. 2/27/2022. https://orthochristian.com/144691.html